مسابقة الفلسفة لطلاب السنة التوجيهية (١ ، ٢)

١ – فيدون

للأستاذ كمال دسوقي

للمحاورة من المحاورات الأفلاطونية تاريخان : تاريخ حدوث وتاريخ تدوين ، وقد تكون الواحدة منها من أولى المحاورات وقوعاً وآخرها تدويناً – وقد تكون العكس – حسبما تصادف الرواية من ظروف الجدل على يد سقراط ، والكتابة على يد أفلاطون .

وفيدون آخر المحاورات السقراطية وقوعاً على التحقيق لأنها تنتهي بآخر مشهد من حياة سقراط ؛ بتجرعه السم وموته ، ولهذا يؤرخ لها بسنة تسع وتسعين وثلثمائة التي مات فيها سقراط على أرجح الآراء . ومع هذا فهي ليست من أوائل المحاورات تدويناً عند أفلاطون – لما يبدو فيها من العمق والمثالية التي هي أدنى إلى الأفلاطونية – مع أن المؤرخين يسلكونها في المرحلة الأولى من تأليف أفلاطون : أوطيفرون ، واحتجاج سقراط ، وأقريطون ، وفيدون – التي يسمونها المرحلة السقراطية لقرب عهدها به ؛ ولذلك فالمنتظر أن يكون فيدون قد روى هذه المحاورة – ودونها أفلاطون بالتالي ، بعد زمن طويل من وفاة سقراط .

والمحاورة قسمان غير متعادلين ، يفصل بينهما انصراف سقراط إلى ذكر شيء من تجربة – حين بلغ الشك مبلغه في نفس محدثيه ، وكان من قبل قد استطاع أن يزيل كل شك في نفسيهما ، أما هنا – فهو يتوقف عن الجدل مضطراً لكي يتحدث عن نفسه واشتغاله بالعلوم والمذاهب .

والقسم الأول هو إذن أكبر القسمين – ويتناول ، بعد شيء من المقدمات تتعلق بظروف المحاورة وشهودها وما انتابهم من شعور ، ثم زوجة سقراط – وفك أغلاله . الخ – تقول – يتناول الموت والانتحار وموقف الفيلسوف من كليهما ، والحديث عن الموت بوصفه « انفصال الروح عن الجسد » يستتبع الحديث عن الروح والبدن ، والتفرقة بين المحسوس والمثالي المطلق ، حيث ينتهي سقراط إلى أن سبيل المعرفة الأوحد أن تعود الروح إلى مفارقة البدن ، وإلى أن واجب الفيلسوف أن يعد نفسه للموت . ويثير هذا خوفاً على مصير الأرواح في نفس سيبيس Cebes – فيطمئنه سقراط على خلود الروح بأدلة ثلاثة يتبعها رابع – تثير مناقشتها مشكلات التذكر والتضاد وأزلية الروح وأبديتها ... وتناسقها وتناسخها .. الخ ...

ولنفصل القول بإيجاز في كل مشكلة من هذه .

١ – الموت والانتحار :

١ – الحكيم لا يهاب الموت ولا يحفله – بل ينشده ويرحب به – فهل معنى هذا أن ينتحر ؟ وهل له بدلا من أن ينتظر وقوع الموت ويستجديه من الآلهة أن يضع لحياته حداً ؟ لا – إن عليه أن يضع نفسه حيث وضعته الآلهة ، وألا يخلص روحه من سجن البدن إلا متى أرادت ، فالآلهة أدرى بخيره منه – وهو حين يخرج على إرادتهم بفعل هذه الجريمة – كالثور أو الحمار يعصى صاحبه – فقد ارتكب أكثر من نكر واحد :

(ا) فهو أولا قد ظن في نفسه القدرة على الموت والحياة . وهو خلو منها .

(ب) وافترض في نفسه حكمة أكثر من الآلهة – ومعرفة بخيره منهم ... وعناية بنفسه أكثر من عنايتهم ، حيث يكون الخير في الواقع ما أرادوه هم – ولو كان سجناً أو مرناً وهو الذي يفر من خيره في غير حكمة .

(ج) ثم هو يهب نفسه حرية واختياراً أن يفعل ما يشاء أكثر مما له في الحقيقة .

والنتيجة أن واجب الفيلسوف أن يرغب الموت ولا يرتكبه ، ولكن له أن يحاول فصل روحه عن بدنه وتعطيل حواسه عن فكره حتى يتهيأ له سبيل المعرفة الصحيح ، ووسيلة التطهير والخلاص . وعليه حتى حين الخلاص النهائي أن يعد نفسه له ، وأن يحييها مرة ومرات ، فيعادي البدن ويتجنب كل ما يمت إليه بسبب ، حتى تحصل روحه الحكمة من العالم الآخر قبل أن تصل إليه ، وحتى تألف الموت فلا تفزع له أو تفرق منه ، وبهذا المران على تطهير الروح يصل إلى الاعتدال الذي لا تطرق معه في صفة من الصفات ، كما يصبح سعيه للحكمة وخلاص النفس وتطهيرها مقصوداً لذاته ، لا لمقايضة ومبادلة أو ترجيح للذة أو خير أبعد – بمعنى أن يتطبعوا بالحكمة لا يبغونها لنفع أو غرض

٢ — خلود الروح :

وهنا يسوق سيبيس على لسان العامة تشكيكاً فى مصير الروح بعد انفصالها عن الجسد ، وقولهم إنها تصبح هباء أو دخاناً تذروه الرياح — فيقدم له سقراط الأدلة على بقاء الروح فى العالم الأزلى — وسنسوقها بترتيب ورودها .

١ — فأولاً يقدم سقراط دليلاً يبدو أنه يريد به نظرية تناسخ الأرواح Transmigration أى انتقالها من بدن إلى آخر بعد موته — وإلى هذا رمز بقوله « المذهب القديم الذى كنت أتحدث عنه » أى الفيثاغورية ؛ وعلى هذا فلا بد أن تظل الروح باقية كيما يخرج الحى من الميت . ولا تقوم صحة هذا الدليل إلا إذا سلمنا بهذه النظرية الفيثاغورية ، بمعنى أنه إذا قام الدليل على أن الحى لا يولد إلا من الميت ، فقد صحت النظرية ، وثبت بالتالى خلود الروح وتناسخها ، وإذا لم يقم على ذلك دليل سقطت هذه الحجة

ب — ولكى يقدم سقراط دليلاً آخر يبحث مسألة التضاد فيما بين الأشياء : الكبر والصغر . والعدل والظلم ، واليقظة والنوم … الخ والفعل الذى به يتم الانتقال من الضد إلى الضد ذهاباً وجيئة ، وينتهى إلى أن الموت الذى نراه ، لا بد أن يكون ضده الحياة التى لا نراها موجودة — فأرواحنا لابد إذن موجودة فى العالم الأدنى — والحى لابد أن يكون خروجه من الميت كذلك ، وإلا لا نعدم توالد الأشياء وأصبح مصيرها مصير « أنديميون » النائم أبداً — فهذا الدور أو التعاقب بين الأضداد هو الذى يؤكد لنا خلود الروح … وهذا الدليل كما نرى وجودى فكرى أكثر منه حقيقياً ، فالتضاد بين الأشياء مقولة من مقولات الفكر ، ومن عمل العقل والمنطق — نحن ندرك النوم باليقظة — ونميز الصحة بالمرض ، ولكن ليس محتوما أن يتولد المرض من الصحة ولا النوم من اليقظة . حقاً إن الكون والفساد من نواميس الطبيعة — التى هى كما يقول — لا يفترض أنها تسير على ساق واحدة فحسب — وما لم نسلم بنظرية التناسخ السابقة — فإن هذه الحجة لا تدل وحدها على خلود الروح .

(حـ) والحجة الثالثة هى نظرية التذكر ، ويقصد بها أن أرواحنا قد أقامت قبل حلولها فى البدن فى عالم آخر نتذكر الآن ما عرفته فيه من قبل ، ودليلها — كما فى محاورة مينون — الإجابة الصحيحة التى يدل بها شخص ما عن سؤال صحيح يوجه إليه — ويكون التذكر بالتلازم — كالمحبوب والقيثارة — وسيمياس وسيبيس — أو بالتشابه أو التضاد — كما فى الحجة السابقة ، أو بالتساوى الذى يوجد مثاله — ككل المثل — فى عالم التجريد والذى نقيس عليه تساوى العصى أو الحجارة أو قطع الخشب — التى ليست فى حقيقتها متساوية — بل تنزع إلى التساوى الحق دون أن تبلغه — وهذه المثل نحن لم ندركها بالحواس ، بل الحواس هى التى تذكرنا بها فى عالم المثل . وقد ولدنا ومعنا هذه المعرفة — أى أننا قد حصلناها قبل أن نولد — وها نحن الآن نتذكرها بطريق الحواس ؛ وإلا فلو أننا قد حصلناها ساعة الميلاد أو بعده — فكيف سلبت منا بعد أن أعطيت لنا حتى ننساها ثم نعود فنتذكرها — وإذن فأرواحنا قد كانت موجودة قبل أن نولد ، وكذلك المثل المطلقة للخير والعدل والحق والتساوى … الخ التى تذكرنا بها حواسنا الآن . وهذه الحجة تثبت أزلية الروح — ولا تثبت أبديتها — كما شك سيمياس ، وعليه يرد سقراط بأنه من مجموع هذه الأدلة يقوم الدليل على خلود الروح .

(٤) على أن أهم دليل يقدمه سقراط على خلود الروح — هو الحجة القائلة — بأنه إذا كان الجسم يفنى لأنه مركب يتحلل بالفساد — فالروح باقية لأنها بسيطة لا تتحلل ولا يجوز عليها التغير — لأنها ثابتة خفية يدركها العقل ولا تقف عليها أى الحواس ، وبذلك فهى أبدية خالدة شأن كل ما هو إلهى — حقاً أن المادة الجسمية تغشى بكثافتها على صفاء الروح وتدنسها بمخالطتها ، ولكن الفلسفة كما قلنا هى وسيلة تطهير البدن من هذا الجسم وإماتته مرات قبل أن يموت نهائياً — فإذا صح هذا التدرب على إماتة الجسد — رحلت الروح آخر الأمر نقية طاهرة ، ورفلت فى نعيم إلهى مقيم . أما إذا كانت الروح تجر وراءها دنس المادة وكدر الشهوة ، لم تزل تحوم حائرة حول المقابر — جزاء إثم أصحابها الفجار فى الحياة . وربما تقمصت هذه الأرواح الفاجرة الشريرة أجسام حمير أو ذئاب أو حدأ يزاولون فيها ميولهم وطباعهم ، ولذا كانت الفلسفة سبيلا لتحرر الفيلسوف ، واعتداله ، وتخلص روحه وخلودها سعيدة مع الآلهة . ولذلك أيضاً لم يكن سقراط أكثر اعتدالا أو هناءة أو تغريداً فى أى وقت من حياته منه ساعة إعدامه — وهو يشبه نفسه بطيور التم swans التى تزيد تغريدها قبيل موتها .

(يتبع)

كمال دسوقى
المدرس بالمنصورة الثانوية